٣ـ حكاية الوفد الكسروى

لأستاذ جليل

١ — قوّل منشىء الخبر حاجب بن زرارة التميمى هذا القول : « ... إن العرب أمة قد غلظت أكبادها ، واستحصدت مرتها نحن وفودها إليك ، وألسنتها لديك ... »

وقد عنى الصباغ بالأمة مصطلح وقته ، وما نذهنه نحن فى هذا العصر ، ولم يقل عربى جاهلى فى زمن : نحن أمة . وإنما يعرف العربى عشيرته أو قبيلته أو رَبعه أو حيّه أو مدينته أو عنيته أو تهاميته أو ما ضارع ذلك . وإن كان فى لغته من معانى الأمة (الجماعة) ، فلم يقلها كما لم يقل نحن جماعة العرب قاصداً جميع العرب وأحياءهم وقبائلهم كافة . وما جاءت العرب أمة إلا من بعد أن ألّفها (مؤلفها) وقرأت (سفر التكوين ...)

ويعز على العربى الصحيح أن يرى العرب قد تناكروا التأليف الدهر الأطول ، وقرءوا (الكتاب) ولم يعقلوه ، ولو عقلوا لكانوا أمة أى أمة ، ولعربت الدنيا وأحال أهلها[1]

يا هؤلا ، سيروا فى قومكم سيرة عمرية ، وخلصوهم من البؤس والجهل والأمية ، وعلموا العربية ، وعلموا القرآن ، علموا القرآن تقبل إليكم وحدة عجيبة عربية

إن على الصخر « لا كالبناء على الآجر والطين »

وللأمة فى (الكتاب) معان جمة ، أكثرها الجماعة والدين أو الملة . قال تعالى (والأمة هنا هى الجماعة) :

« كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله . ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم ، منهم المؤمنون ، وأكثرهم الفاسقون »

فالأمة فى الآية الكريمة « هم الذين هاجروا مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من مكة إلى المدينة ، وخاصة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم » كما جاء فى (جامع البيان) للطبرى والمهاجرون عرب وغير عرب كما هو معلوم ، وقد كان فيهم سالم بن معقل الأصطخرى ولو لم يستشهد فى قتال عرب مرتدين لكان الخليفة الثالث[2] . وسالم هذا مهاجر ، وبدرى ، وأنصارى بالولاء ، وشهيد (الله أكبر ، الله أكبر !) ، وكان يؤم فى الطريق من هاجر معه من مكة ، وفيهم عمر بن الخطاب (رضوان الله عليه)

فالآية لا تعنى العرب إذ لم يكونوا عند نزولها قد أسلموا فضلاً عن أن يأمروا بمعروف وينهوا عن منكر ، وقد ارتد جلهم حين أظلمت الدنيا بفقد رسول الله ، وكادت مكة[3] ترتد مع المرتدين ؛ لكن أين المغر من الهدى والخير ، وهناك (خير أمة

من تزاوير الخيال ، فليطمئن عذالى ورقبائى ، وليعرفوا أن حديث الجنية بعض الذى زورت من الأحاديث

أنا قضيت ليلة مع الجنية بعد ليالٍ وليال ، وهذا عطرها فى قلبى ، وهذا سحرها فى قلمى ، فليصاولنى سكان وادى عبقر ، إن كانوا يطيقون

أتغضب يا ربى لأن أقول هذا القول ؟ أنا أحكم بما أرى ، وأنت لعدلك لا تطالبنى بأن أحكم بغير ما أرى . وهذه الجنية هى آيتك عندى على التفرد بالجمال

هى فى سحرها قَبَسٌ من سِحْرك ، وبجمالها أتعرف إليك ، فاجعل حبى لها كفارة عما ساورنى من العقوق

هى جبين الشمس ، وأنت فاطر الشمس ، فليكن حبى لها وثنائى عليها فقّا من الحب لك والثناء عليك .

زكى مبارك

---

(١) النهاية : ومنه الحديث : من أحال دخل الجنة يعنى أنه تحول من الكفر إلى الاسلام

(٢) فى (تاريخ الأمم والملوك) للطبرى : أن عمر لما طعن قيل له يا أمير المؤمنين لو استخلفت ، قال : من استخلف ؟ لو كان أبو عبيدة حياً استخلفته ... ولو كان سالم مولى أبى حذيفة حياً استخلفته . . . » وفى الجزء الأول من تاريخ ابن خلدون : لوليته أو لما دخلتنى فيه الظنة . وقال ابن خلدون : ولما استعظم عمر أمر الخلافة ورأى شروطها كأنها مفقودة فى ظنه عدل إلى سالم لتوفر شروط الخلافة فيه

(٣) فى كتاب (الأموال) لأبى عبيد القاسم بن سلام : « إن عمر كان لا يعطى أهل مكة عطاء ولا يضرب عليهم بعثاً ويقول : هم كذا وكذا كلمة لا أحب ذكرها »

أخرجت للناس) وفيها أبو بكر ، فيها أبو بكر . وكان معد يكرب أحد رجال الوفد ... ممن ارتد

ومن معانى الأمة (القرن) قال تعالى :

« وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيداً »

ومن معانيها الدين فى قول النابغة :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وهل يأثمن ذو أمة وهو طائع

ومثل ذلك قول غيره :

وهل يستوى ذو أمة وكفور

والأمة هى النعمة فى قول الأعشى ميمون بن قيس :

وللموت خير لمن ناله إذا المرء أمتــه لم تدم

٢ — يقول النعمان لكسرى :

« إن الله تعالى أعطاهم فى أشعارهم ورونق كلامهم وحسنه ووزنه وقوافيه مع معرفتهم بالأشياء وضربهم للأمثال وإيلافهم فى الصفات ما ليس لشىء من ألسنة الأجناس[1] »

ذكر وزن الشعر ولم يبق إلا أن يذكر بحوره

الوزن لفظة محدثة وضعها الخليل فيما وضع لفن العروض ، ولو سمع جاهلى : وزن الشعر لدهش وبهت . وقد قال الجوهرى فى أحياء العرب فلم يسمع هذا المصطلح . ولا يفهم العربى فى الجاهلية من الوزن إلا الثقل والخفة فى حقيقة أو مجاز ، كقولهم : كلام موزون ، وهو وزين الرأى أى رزينه كما فى الأساس . وفى اللسان : هذا القول أوزن من هذا أى أقوى وأمكن . وفى جمهرة اللغة لابن دريد : الوزن أصله مثقال كل شىء وزنه ، ثم كثر فى كلامهم حتى قالوا فلان راجح الوزن إذا نسبوه إلى رجاحة الرأى وشدة العقل

وأما قول اللسان : وأوزان العرب ما بنت عليه أشعارها واحدها وزن ومثله قول التاج ، وزاد هذا « وهو مجاز » . فالكلام فى المعجمين تفسير لما اصطلح عليه الخليل لا شرح لفظ ورد عن العرب فى جاهليتها . ولا ريب فى أن نابغة العرب لم يستعمل (الوزن) إلا مجازاً

والقافية من مصطلحات الخليل وإن وردت من قبل ، ومعناها فى أقوالهم هو غير ما أراده الصائغ وقوله النعمان . وقد اختلفوا فى حدها (أعنى القافية) على اثنى عشر قولا ...

ومن بديع ما يروى أن علم القافية « واضعه امرؤ القيس ابن ربيعة المعروف بالمهلهل خال امرىء القيس بن حجر الكندى » واللاغى بهذا القول قد سلب الخليل بن أحمد الفراهيدى حقه سلباً عجيباً ، وظلم عبقريته ظلما عبقرياً

واضع علم العروض والقوافى فى العربية هو الخليل ، ولن يضع من قدره شيئاً أنه علم أن عند الإغريق عروضاً ، أو حدثه بذلك عالم باليونانية ، أو أطلعه على باب من هذا الفن عند القوم . ففى (الغيث المُسجم فى شرح لامية العجم) للعلامة صلاح الدين الصفدى :

« وذكر لى العلامة شمس الدين محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصارى أن الشعر اليونانى له وزن مخصوص ، ولليونان عروض لبحور الشعر . والتفاعيل عندهم تسمى الأيدى والأرجل . قال : ولا يبعد أن يكون وصل إلى الخليل بن أحمد شىء من ذلك ، فأعانه على إبراز العروض »

إن فضل الخليل فى إبداعه عظيم — وإن صح ما ذكر ابن ساعد — ولن يصغره أقل تصغير منبه حقير نبهه فتفطن لما تفطن له ، وأغرب ذلك الإغراب ، وخاض فى تلك البحور ...

وقل فى (علم العربية) ما قيل فى غيره ، فلن يضع من قدر الناحين الأولين أنهم علموا أن عند السريان واليونان قواعد للغاتهم ، فنحوا فى ترتيب قواعدنا نحوهم

وإذا عرفنا واضع علم فن العروض ، فإنا من واضعى النحو فى لبس كبير . وأما قول ابن أبى الحديد فى شرح النهج أن أحد كبار الصحابة (رضى الله عنهم أجمعين) : « هو الذى ابتدعه وأنشأه وأملى على أبى الأسود الدؤلى جوامعه وأصوله ، من جملتها : الكلام ثلاثة أشياء : اسم ، وفعل ، وحرف ، ومن جملتها تقسيم الكلمة إلى معرفة ونكرة ، وتقسيم وجوه الإعراب إلى الرفع والنصب والجر والجزم . وهذا يلحق بالمعجزات ؛ لأن القوة البشرية لا تفى بهذا الحصر ولا تنهض بهذا الاستنباط »

قول ابن أبى الحديد هذا هو أملوحة من الأماليح ، وأبو الحسنين (رضوان الله عليه وعلى ابنيه) كان معلم بطولة

(١) أغلب الظن أن منشئ (المقامة) قال : الناس لا الأجناس وقد مهى التصحيف إلى هذه اللفظة كما مشى إلى كثير من ألفاظ (العقد) والأجناس تشمل أمما جمة ... منها الناس وغير الناس ..

وأخلاق ، وكان بانياً من بناة هذه الأمة ، ولم يكن أستاذاً من أساتذة النحو ...

أورد ابن النديم فى « الفهرست » هذا الخبر بعد أن روى تلك الأسطورة المشهورة ، وقد يكشف شيئاً من اللبس بعض الكشف :

« وقال آخرون : رسم النحو نصر بن عاصم الدؤلى . ويقال : الليثى ، قرأت بخط أبى عبد الله بن مقلة عن ثعلب أنه قال : روى ابن لهيعة عن أبى النضر قال : كان عبد الرحمن بن هرمز أول من وضع العربية ، وكان أعلم الناس بأنساب قريش وأخبارها وأحد القراء »

نروى هذا الخبر إلى أن يتبين للباحثين الحق

* * *

ذكرنى هذا البحث فى العروض والنحو بمناظرة كانت بين العلامة الأستاذ الدكتور (بديع الزمان) وبين الأستاذ (أزهرى المنصورة) فى ذينك الفنين ووقت كونهما حيث تجادل بالأمس صاحب العزة العلامة الأستاذ الدكتور طه حسين بك وسيادة العلامة الأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى (أعز الله دولة الأدب العربى بطول بقائهما) وقد أحببت أن أروى هنا آخر مقالة فى تلك المناظرة ، ولكن (الرسالة) تأبى إلا الفض الجديد ، فأكتفى برواية المقدمة نموذجاً من العبارات الشديدات فى المناظرات ، وهى أقسى ما واجه به الأستاذ (أزهرى المنصورة) خصمه العلامة الأستاذ الدكتور بديع الزمان

قال ذلك (الأزهرى) :

جاء فى تاريخ ابن الوردى

« عزم قاضى الموصل أن يقول للسلطان فى إخراج (قضيب البان) الولى المشهور من الموصل فى سره ، قال القاضى : فرأيت قضيب البان مقبلا على هيئته المعروفة ، فمشى خطوة فإذا هو على هيئة (كردى) ، ثم مشى خطوة فإذا هو على هيئة (بدوى) ، ثم مشى خطوة فإذا هو على هيئة (فقيه) بصورة غير الصورة المتقدمة ، وقال لى : يا قاضى ، هذه أربع صور رأيتهن ، فمن هو قضيب البان منهن حتى تقول للسلطان فى إخراجه ؟ فلم أتمالك أن أكببت على يديه أقبلهما وأستغفر الله ... »

الشاهد فى هذه الحكاية أن الأستاذ (بديع الزمان) قد شاكل ولى الله (قضيب البان) فهو يبدو لنا مرة بازيسياً ، ويتجلى حيناً أزهرياً ، وتراه فى وقت عربياً ، وتلقاه تارة باحثاً غربياً ، وكأنه ما تسمى (بديع الزمان) إلا لكى يأتينا من بدائعه ـ ليبهرنا ـ بأشكال وألوان

وقلما أبصرت عيناك من رجل

إلا ومعناه إن فتشت فى لقبه

فهو فى الإعراب مع المعربين ، وهو فى اللحن مع اللاحنات ، وهو فى مبحث عند العربيات ، وهو فى حديث حدث غربيات ـ فقلبه وثاب ... ـ وهيهات أن نخلص منه ، لا علينا ولا لنا ، هيهات

* * *

إن فى (المنصورة) اليوم (لكريماً) ، وإن فى (المنصورة) اليوم (لكرماً)

(م)

مجلس مديرية الجيزة

الادارة الهندسية القروية

تقبل العطاءات لغاية ظهر يوم ١٤ أكتوبر سنة ١٩٤٣ عن :

١ — إنشاء حمامات للتلاميذ بمكتب عام منشاة القناطر مركز امبابة

٢ — عملية إصلاح وتجديد دورة مياه المسجد البحرى بناحية البليدة مركز العياط وتطلب العطاءات على عرضحال دمغة لكل عملية على حدة نظير مبلغ ٧٥٠ مليم ويمكن الاطلاع مجانا على الرسومات بالادارة الهندسية القروية ١١٩٦